The Ministry of Saladin al-Ayyubi in the Fatimid Stated : A Historical Analytical Study 564-567 AH/1168-1171 AD

Khader E. M. Al-Sarhan[(1)*]

(1) Assistant Professor, Department of History, Faculty of Arts and Humanities, Al al-Bayt University, Mafraq - Jordan

Received: 03/11/2023
Accepted: 09/02/2024
Published: 15/09/2024

* ***Corresponding Author:***
khsrhan@yahoo.com

DOI:https://doi.org/10.59759/art.v3i3.677

Abstract

This study attempts to shed light on an important stage that the Islamic nation went through , and the state of conflict that was going on between three main forces controlling the Islamic world: the Umayyads who established their state in Andalusia after its fall in the East, the Fatimids in their Egyptian phase, the Abbasids maintaining their authority in the East, noting that political and sectarian conflicts would sometimes disappear when one of these countries was exposed to external aggression, as was the case that led to the entry of the Ayyubids into Egypt, which came to stand by the state in its confrontation with the Franks , based on a call for help sent by the Shiite Fatimid Caliph to the Zengid Sunnis in the Levant which resulted in the Ayyubids assuming the Fatimid Ministry of State, and Saladin al-Ayyubi was the most important vizier at this stage. From here, we will talk about the important role that Al-Nasir Saladin Al-Ayyubi played as the vizier of the Fatimid Caliph in Egypt, trying to identify the reasons and factors that led him to assume the ministry, and to the various military, administrative and economic actions that he carried out in order to consolidate the foundations of his authority, which in the end, were able to overthrow the Fatimid Caliphate in Cairo and call for the Abbasid Caliphate.

Keywords: Fatimid Caliphate, Fatimid Ministry, Zengid State, Vizier Saladin, Egypt.

وزارة صلاح الدين الأيوبي في الدولة الفاطميّة: دراسة تاريخيّة تحليليّة ٥٦٤-٥٦٧هـ/١١٦٨-١١٧١م

خضر عيد مفلح السرحان[١]

(١) أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، المفرق – الأردن.

ملخص

تحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على مرحلة مهمة من المراحل التي مرت بها الأمة الإسلامية، وحالة الصراع التي كانت دائرة بين ثلاث قوى رئيسة تسيطر على العالم الإسلامي: الأمويون الذين أقاموا دولتهم في الأندلس بعد سقوطها في المشرق، والفاطميون في طورهم المصري، والعباسيون يحافظون على سلطتهم الاسمية في المشرق،علما أن الصراعات السياسية والمذهبية كانت تتلاشى في بعض الأحيان عندما تتعرض إحدى هذه الدول إلى عدوان خارجي، كما هو الحال الذي أدى إلى دخول الأيوبيين مصر والذي جاء للوقوف إلى جانب الدولة في تصديها للفرنجة، بناءً على استغاثة وجهت من الخليفة الفاطمي شيعي المذهب إلى الزنكيين سنيي المذهب في الشام، والتي أسفرت عن تولي الأيوبيين وزارة الدولة الفاطمية، وكان صلاح الدين الأيوبي الوزير الأهم في هذه المرحلة، من هنا سوف يتم الحديث عن الدور المهم الذي لعبه الناصر صلاح الدين الأيوبي كوزير للخليفة الفاطمي في مصر، محاولين التعرف على الأسباب والعوامل التي أدت إلى تولي صلاح الدين الوزارة، وإلى مختلف الأعمال التي قام بها من عسكرية وإدارية واقتصادية في سبيل توطيد دعائم سلطته، والتي في نهاية الأمر تمكنت من الإطاحة بالخلافة الفاطمية في القاهرة والدعوة للخلافة العباسية.

كلمات مفتاحيّة: الخلافة الفاطمية، الوزارة الفاطمية، الدولة الزنكيّة، الوزير صلاح الدين، مصر.

المقدمة.

صلاح الدين الأيوبي شخصية لامعة في التاريخ الإسلامي نشأ في أسرة خبرت الإدارة والسياسة والقيادة العسكرية ووجد دعماً من قبل الزنكيين؛ حيث حظي برعاية مباشرة من نور الدين زنكي، الذي عرف عنه حكمة القائد وحنكة السياسي في تلك الفترة الزمنية، وأبيه نجم الدين أيوب بن شادي الإداري الناجح في تكريت وفي بعلبك، وعمه أسد الدين شيركوه، القائد العسكري الزنكي، ونشأت هذه الشخصية في ظل هذه الشخصيات الثلاث، وفي وسط مناخ من الحماسة لمواجهة المخاطر الفرنجية التي هددت العالم الإسلامي (البنداري، ١٩٧٩، ص١٦؛ جب، ١٩٩٦، ص١١٨)،

وانتهى به المطاف باعتلائه منصب الوزارة لدى الخلافة الفاطمية في مصر خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه، ومنصب الوزير آنذاك هو المنصب الأهم في الدولة الفاطمية، فهو صاحب السلطة الفعلية، وبتوليه هذا المنصب تغيرت معالم مصر السياسية والمذهبية وقسم كبير من البلاد الإسلامية التي كانت خاضعة للفاطميين، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة نظراً لأهمية منصب الوزارة في تلك الحقبة من تاريخ الدولة الفاطمية ونظراً لمكانة الشخصية التي تم اختيارها لهذا المنصب فالوزير الذي وقع عليه اختيار الخليفة الفاطمي هو أحد القادة العسكرين لدولة سنية المذهب تربى وترعرع في كنفها وفي ظل الأسرة الزنكية.

واجهت صلاح الدين العديد من الفتن والصعوبات الداخلية والخارجية، التي كانت تحاك ضده في بداية توليه الوزارة؛ من حاضنته الزنكية أولاً، ومن الأمراء في البلاط الفاطمي وأتباعهم، علاوة على الخطر الفرنجي، الذي هدد دمياط، لكنه تمكن من هزيمته، علاوة على قيامه بالأعمال الإدارية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يتطلبها منه منصبه، بالإضافة إلى مشروعه الذي يخطط له، فعندما استقرت قدمه في الوزارة شرع في استمالة قلوب الناس إليه، فقام بإلغاء العديد من المكوس والضرائب والمظالم، وكان له دور كبير في الحركة الاقتصادية والعمرانية والعلمية، إلى أن توج مشروعه بالقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر وإعلان الخلافة العباسية فيها (كلش،٢٠٢١، ع ٢، ص ١٨٨)، وقد اعتمد الباحث المنهج التاريخي التحليلي للخروج بنتائج مهمة لهذا البحث.

١. عوامل تولي صلاح الدين الوزارة:

قبيل وفاة أسد الدين شيركوه، كان صلاح الدين يوسف ابن أخيه قد سار معه على كره منه لمصر، فعندما وردت كتب الخليفة العاضد إلى نور الدين الزنكي، مستغيثاً به ضد الفرنج، ويطلب إرسال العساكر الزنكية نصرة له في مصر، أمر نور الدين بتجهيز حملة زنكية جديدة، بقيادة أسد الدين شيركوه، للتوجه إلى مصر، وقد كان صلاح الدين متردداً في الخروج، وقال له عمه أسد الدين شيركوه: "تجهز يا يوسف! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانقضى المجلس" (ابن الأثير،١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٣؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٥٢؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٨٨؛ علي، ١٤٠٧، ص ٣٥، العبادي، ١٩٩٥، ص٤٣). يؤكد هذا النص عدم الرغبة في الخروج لدى

صلاح الدين، مما حدا بنور الدين زنكي أن يتدخل ويطلب منه الخروج مع عمه، فيجيب صلاح الدين طلب نور الدين ويتجهز للخروج مع عمه بعد أن طلب من نور الدين بعض الأمور التي قضاها له قبل الخروج ومما اشتكى منه صلاح الدين أنه يمر بضائقة ولا يملك الدواب (أبو شامة،١٩٩٧،ج٢ص ٥٢)، وهنا تظهر ملامح الشخصية العسكرية المنضبطة لدى صلاح الدين، فما إن يأمره القائد نور الدين في الحركة، إلا وتجده قد لبى النداء، متغاضياً عن عدم رغبته في الخروج، والتي كان قد أعلنها صراحة لعمه أسد الدين شيركوه في بادئ الأمر بعدم الرغبة في الخروج في الحملة النورية الثالثة على مصر.

كثير من الروايات تحدثت عن وزارة صلاح الدين منها أنه تولاها بوصية من عمه أسد الدين شيركوه، الذي توفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، حيث أوصل ابن أخيه صلاح الدين بالوزارة (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٧٠؛ ماجد، ١٩٩٤، ص٣٨٨)، ومنها أن الخليفة الفاطمي العاضد أرسل في طلب صلاح الدين ليخلع عليه ويوليه الوزارة، وكان الذي حمل العاضد على ذلك صغر سن صلاح الدين، لأنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وهو ليس القائد الرسمي للعساكر الزنكية الموجودة في مصر، ومعظم من معه القادة العسكريين ينظرون له بعين المساواة لهم، وليس القائد صاحب الكلمة الأولى في الأمر، فإنه لن يجسر على مخالفة أوامر الخليفة، وربما سيتمكن العاضد بعد ذلك أن يضع على العساكر الزنكية من يستميلهم إليه، فإذا صار معه قسم يسير من هذه العساكر أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، ويكون عنده من العساكر الشامية من يحميه من الفرنج، ونور الدين إذا ما فكروا بدخول مصر من جديد (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٣؛ ابن العبري، ١٩٩٢، ص٢١٣؛ ابن واصل،١٩٥٧، ج١، ص١٦٨؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٥٢؛ عاشور، ١٩٩٦،ص٢١)، وفي نصوص أخرى أن الخليفة العاضد ولاه لأنه أعجب بعقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على قتل شاور وهو في موكبه، وأنه نفذ أمر القتل حال وصوله من الخليفة، ولم يتريث ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١١٥).

وإن أخذنا بهذا الرأي ربما كانت الوزارة مكافأة من الخليفة لصلاح الدين على هذا العمل، الذي كان يطمح إليه الخليفة، ولم يجد أحدا يتجرأ على تنفيذه إلى أن نفذه صلاح الدين، وهذا يبين مقدار ما كان يتمتع به شاور من نفوذ أمام خليفة بلا نفوذ. من خلال هذه النصوص التي توردها معظم المصادر نجد أن القاسم المشترك لخيارات الخليفة الفاطمي في اختيار وزير هو شخصية صلاح الدين الذي أظهر الحزم والعقل في أمور كان قد تولاها، ومهما قيل من أسباب لم نر اسما مطروحا للوزارة غير اسم صلاح الدين، بالرغم من كثرة الساعين لهذا المنصب؛ فهو الاسم الوحيد المطروح لشغل هذا المنصب من خلال

ما اتضح من الروايات، وهنا يتضح أن شخصية صلاح الدين قد أثبتت حضورها على مسرح الأحداث، فالمنصب الذي سيشغله ليس منصباً عادياً؛ إنه وزير سني للدولة الفاطمية الشيعية، في فترة حرجة من عمر الدولة كانت الكلمة الفصل فيها للوزير وليس لغيره، والأعداء تحيط بالدولة من كل جانب.

حاول الخليفة استعادة نفوذه من خلال الإيعاز لصلاح الدين بقتل الوزير القوي وصاحب النفوذ شاور، وتعين صلاح الدين وزيراً بطقوس ومراسم رسمية حيث كانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي-نسبة إلى مدينة تنيس- بطرز ذهب، وثوب ديبقي بطراز ذهب، وجبة تحتها سقلاطون -نوع من الثياب- بطرازي ذهب، وطيلسان -رداء أخضر اللون يوضع على الرأس والكتف- ديبقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء، وفي رأسها مئتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربعة عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدة بقج، وعدة من الخيل وغيرهما، وكان منشور الوزارة ملفوفاً في ثوب أطلس أبيض (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١١٥؛ ماجد، ١٩٩٧، ص٨١)، "وقرئ المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب البلاد المصرية والشامية، وكان يوماً عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات" (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١١٦).

وكان مضمون المنشور "فأنت راضع درّه، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفى ظلمات قساطله[1] تجلى محاسنك، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحوافر الظباء، واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الجبى، وأسل الوهاد بدم العدا، وارفع بروؤسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، ومشهوداً لك يوم مقامك" (ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٠؛ الشيال، ٢٠٠٢، ص٣٥٢).

وكتب الخليفة العاضد لدين الله في طرته بخطه: "هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، وبمن مضى بجدنا رسول

(١) قسطال: وهو الغبار اثناء المعركة.

الله... أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا سلوة" (ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٠، ١٧١؛ ابن الوردي، ١٩٩٦، ج٢، ص٧٣؛ ماجد، ١٩٩٤، ص٣٨٨؛ الشيال، ٢٠٠٢، ص٣٤٥، ٣٤٦).

من النصوص السابقة بالإضافة إلى الهدايا والمراسيم التي أحيط بها تولية صلاح الدين لهذا المنصب، نلاحظ عدة أمور منها محاولة الخليفة تقريب وزيره الجديد بمختلف السبل، حيث منحه الصلاحيات المطلقة، وربما أراد الخليفة أن يعيد صلاح الدين الدولة إلى مكانتها، والى الخلافة هيبتها، كما تم الحديث سابقاً، حيث تظهر هذه الرغبة بشكل جلي فيما كتبه الخليفة بخط يده إلى وزيره الشاب، متغاضياً عن الخلاف المذهبي، وربما كان متوقعاً أن هذا الاختلاف في المذهب لا يعني للوزير الجديد شيئاً، نظرا لما غمره به الخليفة من كرم وهبات وألقاب وعطايا.

تولى صلاح الدين الوزارة ولم يكن عمره يزيد عن اثنين وثلاثين سنة، ولقب الملك الناصر (ماجد، ١٩٩٧، ص٨١)، وأخذ الناصر صلاح الدين يعمل على تثبيت قدمه في الوزارة، ويرسخ أركان سيطرته على البلاد، بكل حكمة وروية، حيث كانت الخطبة على المنابر في مصر للخليفة العاضد، وبعده لنور الدين زنكي، فالخليفة هو سيد البلاد في الظاهر، وما الدعوة لنور الدين زنكي بعد الخليفة إلا تأكيداً على الطاعة لقائده في الشام، فإن كان في الظاهر هو وزير للخليفة الفاطمي، فربما أراد أن يرسل إشارة إلى من معه من الجيش الزنكي وإلى نور الدين زنكي أنه في حقيقة الأمر معهم ولهم، ولن يخرج عن خط سيرهم الذي يبدو أن الخليفة الفاطمي نسيه أو تناساه من خلال مرسوم الوزارة، فكما ذكرت المصادر "فالملك في الظاهر له، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين "بالأمير الاسفهسلار"[1]، ويكتب نور الدين اسمه قبل علامته تعظيما لنفسه، ولا يفرده بالمكاتبة، بل يكتب إليه الأمير الاسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا" (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٧٢؛ ابن العبري، ١٩٩٢، ص٢١٣؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٣؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٨٩؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣١٩).

من المفارقات التي أضيفت إلى المفارقة الأولى في عدم رغبته في الخروج إلى مصر، أن يتولى صلاح الدين سني المذهب الوزارة للدولة الفاطمية صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، ليغير مسار الدولة الفاطمية في مصر والمشرق، فأخذ صلاح الدين علي عاتقه تحويل مصر إلي المذهب السني، فاتبع سياسة تعليمة تعتمد على إحياء وترسيخ المذهب السني من خلال الفقهاء والمدارس،

(١) الاسفهسلار: قائد الجيش.

وإزالة المذهب الشيعي، وتمكن من إدارة المرحلة بحكمة وخبرة، أظهرت براعته السياسية والإدارية، بالإضافة إلى العسكرية، والتي كان يتحلى بها، فعلى الرغم من ضغوطات نور الدين الزنكي من الشام والتابع لدولة الخلافة العباسية، بسرعة التخلص من الخلافة الفاطمية، وإلحاق مصر بالخلافة العباسية، فكانت مهمته صعبة، استعان في تحقيقها بوسائل عدة، وعمل على تهيئة الأجواء له حتى لا تصطدم خطوته بأحياء الخلافة العباسية في مصر بأي عوائق، وحين أتت الفرصة المناسبة ورأى أن الأجواء مناسبة ومهيأة للإعلان عن التغيير، أعلن قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م) وجعلها للخليفة العباسي، فكان ذلك إيذاناً بانتهاء الدولة الفاطمية، وبداية عصر جديد في مصر.

٢. أعمال صلاح الدين في وزارته:

١.٢. مواجهة الزنكيين في مصر والشام:

واجهت صلاح الدين الكثير من الصعوبات منها ما هو داخلي داخل إطار العسكر الشامي، فما إن جرت مراسم تسليم الوزارة، وباشر مهام منصبه الجديد، حتى حدث ما كان يتوقعه الخليفة العاضد حيث تخلى عنه عدد من قادة الجيش الزنكي، ولم يقفوا إلى جانبه في أول أيام تسلمه سلطاته، وكانت المصادر قد أشارت إلى هذا الجانب من تفكير الخليفة بكل وضوح، وكان هذا رأي المقربين من الخليفة الفاطمي ومستشاريه، حيث قالوا له: "ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولى؛ فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه" (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٤؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣١٩؛ سرور، ١٩٩٥، ص١١٨).

وممن حاول الخروج على صلاح الدين الأيوبي من قادة الجيش الزنكي، سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب، وشهاب الدين الحارمي، وابن تليل، واليازوقي، فتدخل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في الأمر؛ حيث حدّث كل أمير من الأمراء على حدة؛ فالقريب بالدم حدّثه بصلة القرابة مع صلاح الدين، ومن يطمع في ولاية أو إقطاع وعده بما يريد، فاستمال الأمراء المعارضين لصلاح الدين باستثناء الأمير اليازوقي الذي رفض أن يخدم مع صلاح الدين، وعاد بمن معه إلى الشام، تاركاً صلاح الدين ومن بقي معه من الجند في مصر، وهنا ضمن صلاح الدين ترتيب وضعه الداخلي مع

العساكر الشامية (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٤؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٧١؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٦٨؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٤٩، ١٥٢).

تمكن صلاح الدين الأيوبي من الأمر، وأدار الوزارة بحكمة ومعرفة لاقت الاستحسان والرضا من قبل الخليفة، وهذا ما يتطلبه العقل والمنطق، وقد لاقت إجراءات الوزير الجديد استحسان الخليفة الفاطمي، وقبوله له؛ حيث زاد في تكريمه واحترامه، من حيث الاستقبال والجلوس مع الخليفة والاستماع إليه فيما يطرح من مختلف القضايا، حتى إن هذه المعاملة وهذا الود من قبل الخليفة اتجاه صلاح الدين قد أثار وأغضب الكثير ممن هم حول الخليفة أو من قادة الجيش الزنكي الذين كانوا تحدثهم أنفسهم بأنهم أحق من صلاح الدين في هذا الأمر، ويشير أبو شامة إلى ذلك بقوله: "أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره، ومال إليه العاضد وحكّمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام" (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١١٧).

هذا ما تعرض له صلاح الدين من جانب قادة الجيش الزنكي المرافقين له في مصر، ورأينا كيف تمكن من احتواء الموقف معهم واستقر الأمر له، إلا أن هناك مصاعب أخرى قد اعترضت طريق صلاح الدين أيضاً من الزنكيين في الشام، حيث تحدثت المصادر عن حالة من عدم الرضا والقبول أصابت نور الدين زنكي لتولي صلاح الدين الوزارة الفاطمية، وكان قد أظهر عدم الرضا في السابق من تولي عمّه أسد الدين شيركوه الوزارة، وطلب من الخليفة الفاطمي إعادته إلى الشام، إلا أن الخليفة لم يستجب لهذا الطلب، والآن يأتي صلاح الدين ويستلم الوزارة، وتذكر الروايات التاريخية أن حالة من الغضب اعترت نور الدين زنكي لتسلم صلاح الدين منصبه الجديد، وكتب بذلك إلى صلاح الدين إلا أن صلاح الدين لم يجب على الكتب، ولم يخرج عن طوع نور الدين زنكي، وهنا تبرز حكمة صلاح الدين أيضا في إدارة الموقف، فالجند الذي بقي معه يدين بالولاء لنور الدين أكثر من صلاح الدين، وهذا يبين أن استشعار الجند بأي محاولة خروج على نور الدين من قبل صلاح الدين ربما سيؤدي بهم للخروج عليه وقتله (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٢٢٨، ابن شداد، ١٩٥٧، ج١، ص٢٢٣)، بلغت حدة الغضب عند نور الدين أن قام بمصادرة وانتزاع حمص والرحبة من نواب أسد الدين شيركوه، وكان نور الدين قد منحها إلى أسد الدين أثناء وجوده بالشام، كما أن نور الدين رفض في بداية الأمر إرسال إخوة صلاح الدين إلى مصر، إلا أنه تراجع عن ذلك عندما علم بشدة الضغوطات التي يتعرض

لها صلاح الدين في مصر، فقام بإرسال والده وأقاربه إليه ليقفوا معه فيما قد يعترضه من شدائد، سواء من هجمات الفرنجة الخارجية أو من حاشية الخليفة الفاطمي التي لم تكن راضية عن تولي صلاح الدين لمنصب الوزارة بالأصل، وهذا ما سيتم تسليط الضوء عليه لاحقاً (ابن شداد، ١٩٩٤، ص٨١؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص، ١١٧، ١١٨؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٦٨؛ سرور، ١٩٩٥، ص١٢٠).

٢.٢. أدوار صلاح الدين في مواجهة أتباع الخلافة الفاطميّة:

كان قرار تسليم الوزارة إلى صلاح الدين قراراً مزعجا لبعض من في القصر الفاطمي، فأشغلوا أنفسهم في إيجاد طريقة يتخلصون بها من صلاح الدين، وقد تصدر هذا المشهد مؤتمن الخلافة، وكانت له كلمة مسموعة في القصر، بالإضافة إلى أن لديه عدداً كبيراً من الجند كان يأتمر بأمره، وهم جند السودان، وقد استشار المقربين له، فكان الرأي لديهم أن يتحالفوا مع الفرنج في سبيل القضاء على صلاح الدين وجنده (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٥، ٣٤٦؛ ماجد، ١٩٩٤، ص٣٩١؛ سرور، ١٩٩٥، ص١١٩).

وقد رسمت الخطة بإتقان على أن يهاجم الفرنجة مصر من الخارج، فيخرج صلاح الدين للقائهم، وهنا يتم إلقاء القبض من قبل السودانيين بزعامة مؤتمن الخلافة على من أبقاهم صلاح الدين من جنده في القاهرة، فيضعف جيش صلاح الدين، ويصبح محاصراً بين الفرنجة القادمين من الخارج والسودانيين في الداخل، وهنا يتم الخلاص من صلاح الدين وجنده، ويتم اقتسام مصر بين الفرنجة ومؤتمن الخلافة، إلا أن الخطة لم تنجح حيث تمكن أحد عيون صلاح الدين من إلقاء القبض على رسول مؤتمن الخلافة للفرنج وبحوزته الرسالة الموجهة إلى الفرنج، واطلع صلاح الدين على الخطة كاملة، (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٣٠، ١٣١؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٤، ١٧٥؛ ابن أيبك الدواداري، ١٩٧٢، ج٧، ص٤٤؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٩١، ٩٢؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣٢٠؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢١). إلا أن صلاح الدين استخدم الحنكة والدهاء ولم يشعر مؤتمن الخلافة بذلك، وبقي يتربص به على الرغم من إحساس مؤتمن الخلافة بأن خطته قد اكتشفت، وعدم خروجه من القصر لمدة طويلة، وصلاح الدين لا يحرك ساكناً، فشعر بعد ذلك بالاطمئنان وخرج إلى بلدة له على شاطئ النيل، وصلاح الدين يراقب كل تحركاته فما إن وصل إلى منتزهاته حتى انقض عليه رجال صلاح الدين وقتلوه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٣١؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٦).

ما إن وصل خبر مقتل مؤتمن الخلافة إلى أتباعه خارج القصر وداخله حتى ثاروا، وهبوا هبة رجل واحد، وكان عددهم يزيد عن خمسين ألف مقاتل، وكانوا إذا ما اصطفوا ضد وزير أو أمير إلا وكان الموقف في صالحهم، وقد اعتقدوا أن بإمكانهم القضاء على صلاح الدين إلا أن جهودهم باءت بالفشل، ودارت الدائرة عليهم، حيث كلف صلاح الدين الأيوبي أحد قادته وهو أبو الهيجاء السمين بالتصدي لهم، ودارت معركة شديدة بين الطرفين استمرت لمدة يومين، وأحرقت محالهم كافة، فالنار والسيوف تلاحقهم، وتحاصرهم من كل اتجاه إلى أن طلبوا الأمان (ابن أيبك الدواداري، ١٩٧٢، ج٧، ص٤٤؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٦٥؛ سرور، ١٩٩٥، ص١١٩؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢١، ٢٢).

وقد وافق قادة صلاح الدين على مطلبهم، وخرجوا من محلاتهم إلى الجيزة، وهنا تبعهم توران شاه شقيق صلاح الدين إلى الجيزة، وتمكن من إنهاء أمرهم بالكامل، وأُخرجوا من القاهرة (الأصبهاني، ٢٠٠٢، ص٤٠٠؛ ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٦؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٣١، ١٣٢؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٦، ١٧٧؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣٢٠، ٣٢١).

أما الخليفة فقد استشعر خطر الأيوبيين وظهور قوة صلاح الدين، وهذا ما نلمسه من المصادر التي أشارت إلى أن الخليفة الفاطمي كان يتابع القتال من المنظرة الخاصة به في القصر، وطلب ممن في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة من شرفات القصر، فنفذوا تلك الأوامر (ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣٢٠)، إلا أن هناك من يذكر أن من قام بهذا الفعل هم من كانوا داخل القصر، حيث قذفوا العساكر الشامية بالحجارة والنشاب دون أمر من الخليفة، وإن كان حصل الأمر من الخليفة ربما أجبر عليه من قبل من هم داخل القصر، وهنا كان الرد الفوري من قبل توران شاه أيضا الذي أمر رماة النار –الزراقين– الذين بجيشه بإحراق باب المنظرة التي كان يتابع منها الخليفة مجريات الحرب بين الطرفين، مما اضطر أحد رجال الخليفة للخروج من ذلك الباب، ويعلن تخلي الخليفة عن السودانيين بقوله: "أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة، ويقول دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم" (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٣٣). كان لهذا النداء الذي وجه من قبل الخليفة أثره القوي في نفوس السودانيين أكثر من الحريق والسيوف التي لاحقتهم، فقد كان باعتقادهم أن الخليفة معهم ولن يتخلى عنهم، وبعبارات القصر، حسم أمر السودانيين.

اتخذ صلاح الدين إجراءات احترازية فورية أيضاً ليضمن عدم ارتداد الأمر عليه من قبل من هم في القصر، فقبل أن يتمكنوا من مراجعة الموقف، وقبل أن يفيقوا من أثر الضربة التي وجهها صلاح الدين للسودانيين أبناء القصر وخدمه، قام بعزل كل من يعمل في القصر، وعين مسؤولاً جديداً للقصر

من أتباعه، بحيث لا تحدث صغيرة أو كبيرة في القصر إلا بعلمه، وهنا بدأت مظاهر تقييد حركة الخليفة والإشراف على كل تحركاته، فقد عين صلاح الدين الأيوبي أحد قادته، وهو بهاء الدين قراقوش، بحيث "لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره وحكمه" (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٦؛ ابن العبري، ١٩٩٢، ص٢١٥)، ومما يرجح القول إن العاضد كان يعتمد على السودانيين، ويستمد منهم بعض قوته، أن أمره بدأ يتلاشى بعد القضاء عليهم، وأخذ صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد ما يحتويه القصر من خيل وأموال وعبيد إلى أن لم يبق للعاضد شيء مادي يعتمد عليه، مع إبقاء صلاح الدين للشيء المعنوي، وهو الخطبة له يوم الجمعة، وبعده لنور الدين زنكي (ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٨، ١٧٩؛ ماجد، ١٩٩٤، ص٣٩٢).

هذا ما يتعلق بالمعضلة الأولى التي واجهت صلاح الدين من حاشية الفاطميين.

٢.٣. المواجهة مع الفرنج:

أما الصعوبة الأخرى والأشد خطورة التي واجهت صلاح الدين فهي من الفرنج، الذين حاول مؤتمن الخلافة التحالف معهم، وإن كان هناك من يشير إلى أن الفرنجة علموا بهذه الرغبة التي تلامس رغباتهم، كما أنهم قد أدركوا بعد هذا النصر لصلاح الدين على أعدائه من داخل القصر أنه سيتفرغ لهم، فعملوا على مراسلة الفرنجة في أوروبا وأخذوا يحثونهم على سرعة تدارك الموقف قبل أن يشتد أمر الأيوبيين، ويتمكنوا من الفاطميين بشكل عام، ويسيطروا على مصر، وقد خاطبوا فرنجة صقلية والأندلس، وكل من استطاعوا الوصول إليهم، مستخدمين العاطفة الدينية، وأن خطر صلاح الدين سيهدد كافة ممالك الفرنجة في الشرق، وعلى رأسها بيت المقدس، وطلبوا منهم النجدة والنصرة وتزويدهم بالمال والرجال والأسلحة، ليتمكنوا من مواجهة هذا الخطر، وقد لبى الفرنجة الأوربيون دعوة فرنجة المشرق، وأمدوهم بكل ما يحتاجون إليه، وكانت خطتهم الأولى تقضي بالاستيلاء على دمياط، معتقدين أنها ستكون النقطة التي من خلالها يتمكنون من الاستيلاء على مصر كاملة، وقد تمكنوا من النزول على دمياط سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م (ابن الأثير،١٩٩٧، ج٩، ص٣٥٠؛ ابن شداد، ١٩٩٤، ص٨٢؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٣٩؛ ابن واصل،١٩٥٧، ج١، ص١٧٩، ١٨٠؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢٣).

وكان صلاح الدين متيقظاً لهذا المخطط، والذي اطلع عليه من الرسالة التي كان يحملها رسول مؤتمن الخلافة إلى الفرنجة، فعمل على تجهيز جيش بقيادة ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وخاله الذي كان من المعارضين له أثناء استلامه للوزارة، إلا أنه انضمَّ إليه، وأصبح

أحد قادته، وهو شهاب الدين الحارمي، فحاصرهم الفرنج في دمياط وشددوا الحصار عليهم، وبقي الطريق المفتوح لإمدادهم بالمال والسلاح من خلال النيل، وقد بعث إلى نور الدين زنكي يشرح له الحال، ويبين الضغط الذي يتعرض له من قبل الفرنجة، فهو لا يستطيع ترك القاهرة خوفاً من بقايا الفاطميين، وليس لديه الإمكانيات اللازمة للوقوف في وجه الخطر الفرنجي، مما دعا نور الدين للتدخل ومهاجمة مدن ومواقع الفرنجة في الشام، ليخفف الضغط على صلاح الدين في مصر، مما اضطر الفرنج للانسحاب عن دمياط أمام حجم الإمدادات التي كان يبعثها صلاح الدين لجنده في دمياط، وأمام ضغط نور الدين على مدنهم في الشام، كما أن الخليفة العاضد قد قدم إمدادات كثيرة لصلاح الدين لمواجهة الفرنجة في دمياط، وقد ذكر صلاح الدين ذلك كما تروي المصادر، علما أن حصار الفرنجة لدمياط دام قرابة خمسين يوماً (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٥٠-٣٥١؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٤٠، ١٤١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج٢١، ص١٥٥؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٨١-١٨٣؛ ابن أيبك الدواداري، ١٩٧٢).

لقد أثبت صلاح الدين من خلال ما مر به من صعاب وتجارب أنه رجل دولة لا تغمض عينه عن شيء، ويتابع مجريات الأمور بكل دقة، وقد أخذ أبو شامة نصًّاً عن العماد الأصفهاني يصف فيه الحال الذي كان عليه صلاح الدين الأيوبي عندما نزل الفرنجة على دمياط، يقول فيه: "إن صلاح الدين أقام بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، ويسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سره وجهره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المقعد المقيم، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها، واتصل الحصار وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها بالذل الأكمل والصغار الأشمل" (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٤٢).

بعد أن خرج الفرنجة من دمياط خاسرين، ولم يتمكنوا من تحقيق مطامعهم في مصر، أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى نور الدين زنكي يعلمه بالموقف، وقد بعث نور الدين إلى الخليفة العاضد مهنئاً برحيل القوات المحاصرة لدمياط، وكانت المراسلات دائرة بين العاضد ونور الدين، وربما دون علم صلاح الدين بهذا الأمر، حيث طلب العاضد في إحدى رسائله إعادة الجند الشامي من مصر وإبقاء صلاح الدين مع مجموعة صغيرة من خاصته في مصر، وكان خطاب العاضد إلى نور الدين واضحاً ومحدداً يطلب فيه إخراج الأتراك من مصر، إلا أن نور الدين أجاب العاضد بطريقة دبلوماسية أن الأتراك مهرة في رمي السهام، وأن قنطاريات الفرنجة ليس لها إلا هذه السهام حماية

لمصر، ويدعو الله أن تكون تلك السهام فاتحة الطريق إلى القدس (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٤٤؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج٢١، ص١٥٦؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٨٣؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢٤). نستطيع أن نخلص من مراسلات العاضد – نور الدين إلى فكرة مفادها أن الخليفة الفاطمي أدرك خطورة الجيش الشامي التابع لصلاح الدين في مصر، وأراد أن يجرد صلاح الدين من هذه القوة التي يستند عليها، كما أن نور الدين لا يرغب في سحب جيشه من مصر، فلديه مشروع يطمح إلى تحقيقه، ولن يحققه إلا من خلال هذا الجيش، وربما لو طلب العاضد من نور الدين إعادة صلاح الدين وخاصته، لاستجاب لهذا الأمر، لأن نور الدين بالأصل كان قد طلب من الخليفة العاضد إعادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، منذ أن استلم شيركوه الوزارة بحجة أنه يحتاج إليهم كقادة عسكريين عنده.

لقد بدأت الطموحات بعيدة المدى تظهر عند صلاح الدين بشكل واضح، بعد القضاء على السودانيين، وتمكنه من القصر الفاطمي، وهو في الوزارة، وهذا ما يشير إليه ابن شداد حين قال: "إنه سمع من صلاح الدين يقول لما يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي"، ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم لكنه مقو لمذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون إليه من كل جانب، لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً (ابن شداد، ١٩٩٤، ص٨١؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٦٩).

٣. أعمال الوزير صلاح الدين الحضارية:

لقد عمل صلاح الدين منذ أن تولى الوزارة بكل جد ونشاط في سبيل تحسين أوضاع البلاد، وتقريب العباد منه واستمالتهم، حيث أنفق الكثير من الأموال في سبيل الإعمار، وتحسين أوضاع الناس والتقرب من العامة، وسار على طريق العدل والصلاح، وكذلك تابع أمور البلاد خارج القاهرة، حيث وتذكر الروايات التاريخية "أنه عندما استقرت قدم صلاح الدين في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها، وحيعل[1] إلى

(١) حيعل: اختصار إلى حي على.

جوده وفضله، ونادى إلى رفده وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكانة، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وروى بسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل، وتاب من الخمر وعدل" (ابن شداد، ١٩٩٤، ص٨١؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١١٦).

استعان صلاح الدين في سبيل توطيد مركزه بخزائن عمه أسد الدين شيركوه، حيث عمل على استغلالها في وجوه الإنفاق المتعددة التي قام بها، للتخفيف على الناس وضبط أمور البلاد، كما أنه استعان بما قدمه له العاضد أيضاً في هذا المجال من دعم مادي سخي، حيث إن العاضد لم يدخر عنه شيئاً، سواء فسر الأمر برغبة العاضد أم عن غير رغبة، والواضح أن الأموال كانت تجد طريقها للعامة، وفي سبيل تحسين الوضع المعاشي لهم. فمالت القلوب له، واستقر وضعه الداخلي، ليتفرغ لمشاريع البناء والتحصين ضد ما هو قادم مع الأيام، فهو يدرك أن لمصر قيمتها ومكانتها الجغرافية والاقتصادية، ولا يمكن أن يتركه المجاورون لمصر يعيد بناء وترتيب مصر من جديد، بعد أن كانت تحت تهديد سيوفهم، يأخذون من خيراتها ما يشاؤون (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص٧٢؛ ابن العبري، ١٩٩٢، ص٢١٣؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٧٤؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣١٩؛ سرور، ١٩٩٥، ص١١٩؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢٠).

هذا من جانب، ومن جانب آخر قام صلاح الدين بإصلاح النظام الضريبي أو المكوس، حيث قام بمراجعة وتقييم لما كان يجبى من الشعب بشكل عام، حرفيين وصناع أو فلاحين وغيرهم، وألغى ما كان يفرض عليهم سابقاً، لكي يبدأ من جديد معهم، بعيداً عن الاستغلال والتغول، فقد ألغى الضريبة والغرامات التي كانت تؤخذ من ديوان الصناعة بمصر، والتي قدرت بمئة ألف دينار، وما كان مفروضا من أموال على مختلف الأراضي المصرية من الشمال إلى الجنوب؛ البحرية والقبلية، وكان مترتباً عليها مبالغ طائلة، تقدر أيضاً بمئة ألف دينار، فقام بإعفاء كل من عليه ضريبة مستحقة، وأصدر كتاباً في ذلك. كل هذا من أجل أن يحرك عجلة الاقتصاد في البلاد، ويشجع الناس للعودة للعمل والإنتاج.

وقد بلغ مجموع ما هو مترتب من مكوس على أهل مصر حتى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م أكثر من ألف ألف دينار، وألفي ألف إردب غلة، فسامح بجميع ذلك، وقد استاء مما يؤخذ من أهل الحجاز، وأصدر المراسيم التي تعفي أهل الحجاز مما كان يترتب عليهم، وأوجد مصادر دخل خاصّة للحرمين الشريفين (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٢٠، ١٢١).

لم يغفل الوزير صلاح الدين عن الجانب الأمني في البلد، وأدرك أنه إن أراد قاعدة قوية عليه أن يعزز الناحية الأمنية في مختلف البلاد التابعة له، فبدون أن يشعر التاجر والمهني والمزارع والمدرس ومختلف فئات الشعب بالأمن، لا يمكن أن يعطوا وينتجوا، فقام بإرسال حملات إلى مختلف المناطق التي كانت تعيش حالة من الفوضى والخروج على القاهرة، ومثال ذلك حملة أخيه توران شاه على قوص، وبعد أن تمكن منها عين والياً عليها أحد قادة الفاطميين، لكنه انضمَّ إلى صلاح الدين، وأخلص له هو، وهذه الولاية كان المتولي عليها أحد أمراء الأيوبيين وهو رسلان بن دغمش، حيث رفض أهاليها دفع الخراج له، وقرروا الخروج عليه، مما استوجب ذلك الإجراء التأديبي الذي قام به صلاح الدين، حيث كان سكانها وهم خليط من العرب والعبيد مصدر إزعاج للسلطة (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٥٣)، كذلك قام توران شاه بحملة على الصعيد، حيث إن سكانها قد خرجوا على الدولة أيضاً، وأحدثوا لها الكثير من المتاعب والمشاكل، وعلى الرغم من عدم أداء الأموال للدولة، فقد أصبحوا ينهبون كل ما يمر بهم، بالإضافة إلى قطع الطريق، مما استوجب القضاء على هذا التمرد، وبسط الأمن في تلك المنطقة، وقد نجح في ذلك سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٦٢؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٣؛ ماجد،١٩٩٧، ص٨٥).

اتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الاهتمام بعمارة المدارس، وبذل جهداً واضحاً في هذا المجال، وكان يرمي من وراء ذلك إلى إحياء المذهب السني في مصر (العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٩٦؛ العبادي، ١٩٩٥، ص٤١؛ المناوي، ١٩٧٠، ص٢٩١، ماجد، ١٩٩٧، ص٨٤). ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م قام صلاح الدين بهدم دار الشحنة، والتي كانت تستخدم كسجن أيضاً، وأقام مكانها مدرسة لأتباع المذهب الشافعي، حيث لم يكن في مصر مدارس لا للشافعية أو غيرهم من مذاهب أهل السنة، فالدولة شيعية إسماعيلية، ولم يكن من أهدافها أو مشاريعها المحافظة على المذاهب السنية، على الرغم من أن معظم المصريين سنة، بعد ذلك أقام مدرسة على المذهب المالكي مكان دار الغزل، (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٦١؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٠، ١٨١؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٩٧)، وبنى مكان دار العدل مدرسة أخرى للشافعية أيضاً.

لقد أدرك صلاح الدين أهمية التعليم، فحرص كل الحرص على بناء المدارس، وتوفير احتياجاتها من المدرسين، وكافة الأمور اللازمة لمن أراد التعليم. وفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م اشترى المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن أخي صلاح الدين منازل العز وجعلها مدرسة للشافعية (ابن الأثير،

١٩٩٧، ج٩، ص٣٦٢؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٢؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٩٩؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣٢٧؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٧٥)، واشترى أيضا الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٢؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٧٥).

أولى صلاح الدين القضاء أهمية قصوى فأخذ يعمل بالتدريج على عزل القضاة الشيعة، وأحل محلهم قضاة من السنة، حيث عيّن قضاة من أتباع المذهب الشافعي في مختلف نواحي مصر (ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٦٢؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٩٦؛ ماجد، ١٩٩٤، ص٣٩٠؛ سرور، ١٩٩٥، ص١٢١؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢٧؛ ماجد، ١٩٩٧، ص٨٤)، وفوّض القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي، فجعل صدر الدين القضاة في سائر الديار المصرية شافعية، فانتشر المذهب الشافعي، وبدأ مذهب الدولة الفاطمية بالتلاشي، ولم يبق له أثر (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨١؛ ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٩٧؛ ابن أيبك الدواداري، ١٩٧٢، ج٧، ص٤٧؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ج١٢، ص٣٢٧؛ سرور، ١٩٩٥، ص١٢١؛ عاشور، ١٩٩٦، ص٢٧).

عمل صلاح الدين على مصادرة إقطاعات كبار رجال الدولة الفاطمية، وقام بتوزيعها على أقاربه وقادة جيشه، مما جعلهم يقدمون الطاعة والولاء لصلاح الدين، ولا يعصون له أمراً (أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٥؛ ابن الأثير، ١٩٩٧، ج٩، ص٣٤٤؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٩٠؛ بيومي، ١٩٥٢، ص١٦١؛ سرور، ١٩٩٥، ص١٢١).

لم يغفل صلاح الدين باقي المدن المصرية من اهتمامه، فكما اهتم بالقاهرة، اهتم أيضاً بالمدن الأخرى، ومن مظاهر ذلك أنه في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ذهب إلى الإسكندرية، ورمم ما كان قد تهدم منها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها، فهي المدينة الساحلية المهمة، ويجب أن تكون جاهزة للتصدي لأي اعتداء تتعرض له مصر من جهتها (ابن واصل، ١٩٥٧، ج١، ص١٩٩؛ العمري، ٢٠٠٢، ج٢٧، ص٩٦)، هذا بالإضافة إلى اهتمامه الواضح بصيانة وبناء سور القاهرة الذي تهدم منه الكثير في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية، وأضاف إلى قراقوش بالإضافة للقصور الفاطمية، متابعة أمر سور القاهرة، وقراقوش هو أول من راك الديار المصرية أي مسح الأرض المصرية (الأصبهاني، ٢٠٠٢، ص٤٠٠؛ أبو شامة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨٤؛ ابن أيبك الدواداري، ١٩٧٢، ج٧، ص٤١).

النتائج:

توصلت الدراسة إلى عددٍ من النتائج، من أهمها:

١- يتضح من خلال هذه الدراسة أن تولي صلاح الدين الوزارة كان وليد الظروف، وليس مخططاً له مسبقاً، وإنما وقع عليه اختيار الخليفة الفاطمي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه.

٢- استطاع صلاح الدين أن يثبت شخصيته الإدارية والعسكرية والسياسية من خلال تجاوزه للمعيقات والصعاب التي اعترضته أثناء توليه الوزارة الفاطمية، واستطاع كسب ود بعض الأمراء المعارضين له ولوزارته.

٣- لا تتوافق النتائج التي توصلت لها الدراسة مع القول بأن صلاح الدين الوزير كان يفكر بالخروج على سيده نور الدين زنكي، بل بقي تابعاً ومطيعاً له، من خلال الدعاء لسيده على منابر القاهرة، ومتابعة مشروعه في إسقاط الخلافة الفاطمية، وإقامة الدعوة للخليفة العباسي في القاهرة.

٤- يتضح لنا من خلال الدراسة أيضاً أن صلاح الدين نجح في استمالة العامة والخاصّة، وعمل على نشر العلم والمعرفة، وتحسين أوضاع الشعب، مما زاد في مكانته، وتقليص مكانة الخليفة.

٥- تمكن صلاح الدين من القضاء على النفوذ الشيعي من خلال عدة إجراءات اتخذها لتحقيق ذلك كان منها على سبيل المثال إقامة المدارس ورعايتها حيث كان لها الأثر الكبير في إنجاز ذلك.

هذه بعض من نتائج الدراسة وخلاصتها التي أكدت على أن صلاح الدين كان وزيراً رسمياً للدولة الفاطمية، لكنه لم ينس أنه قائد وتابع لسيده نور الدين زنكي في الشام، والذي هو بدوره تابع للخلافة العباسية، والتي استطاعت من خلال صلاح الدين استعادة مكانتها على أرض مصر بعد أن اغتصبها الفاطميون.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري (١٩٩٧)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (٢٠٠٢)، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.

- ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله الدواداري (١٩٧٢)، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، وهو الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، المعهد الألماني للآثار، القاهرة.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد البرمكي (١٩٧٢)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- البنداري، الفتح بن علي، (ت٦٤٣ هـ /١٢٤٣م)، سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبرواي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٩
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قايماز (١٩٩٣)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي (٢٠١٣)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: محمد بركات وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (١٩٩٧)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع الأسدي الموصلي (١٩٩٤)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ط٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي (١٩٩٢)، مختصر تاريخ الدول، تحقيق: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، ط٣، دار الرائد اللبناني، لبنان.
- العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (٢٠٠٢)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٢٠١٠)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.
- ======== (١٩٠٦)، ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (١٩٨٨)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن واصل، محمد بن سالم بن واصل (١٩٥٧)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد (١٩٩٧)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ياقوت الحموى، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (١٩٩٥)، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت.

ثانياً: المراجع:

- بيومي، على (١٩٥٢)، قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة.
- جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، تحرير: يوسف ايبش، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٩٦
- خطاب، حسن عبد الرحمن (١٩٨١)، الزراعة والمجتمع الريفي في مصر الإسلامية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم (١٩٩٦)، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- سرور، محمد جمال الدين (١٩٩٥)، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة.
- الشيال، جمال الدين (٢٠٠٢)، مجموعة الوثائق الفاطمية "وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٩٦)، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة.
- العبادي، أحمد مختار (١٩٩٥)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت.
- علي، وفاء محمد، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.
- ماجد، عبد المنعم (١٩٩٧)، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ماجد، عبد المنعم (١٩٩٤)، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة.
- المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٠.
- Ismail Kalash، Sosyal Bilimler، Kasım / November 2021 Cilt / Volume: 4 Sayı / Issues: 2.